شعر المقاومة الفلسطينية دوره وواقعه

بقلم الدكتور حسني محمود حسين

يلاحظ الدارس ان شعر المقاومة الفلسطينية كان مرآة للحياة السياسية في فلسطين ، فقد واكب هذا الشعر تطور القضية الفلسطينية ورافق كل احداثها وسجل حقائقها منذ بداية الاحتلال الانكليزي للبلاد . وحقا لا يكفي ان يكون هذا الشعر تلك المرآة وحسب، وان كان ذلك في حد ذاته ، ومن منظور الزاوية التاريخية ، وظيفة اداها في صورة او في اخرى . ومع ذلك فلا بد لنا ان نفتش عن دور آخر لهذا الشعر ، فيما اذا وجد ، أبعد من ان يكون تلك المرآة فقط . فهل كان له مثل هذا الدور ؟ وهل اداه في فاعلية ؟ وكيف كان تأثيره على قضية الوطن فيما آلت او ستؤول اليه ؟

ان شعر المقاومة الفلسطينية ليس هو السلاح العربي الوحيد في المعركة سواء قبل النكبة ام بعدها ، فبالاضافة الى هذا السلاح ، هناك اسلحة أخرى متعددة تتمثل في كل الوجود العربي في فلسطين ، ثم في كل الوجود العربي بعامة . وعلى رأس كلا الوجودين يأتي (الفارس) العربي نفسه ممثلا في الانسان العربي من ناحية ، وفي المجتمع العربي من ناحية اخرى . ونحن لا نقول ذلك لنبرر فشلا او نجاحا نقدره ، وانما لتتضح خريطة الموقف العام امامنا ، كي نحدد عليها موقع الشعر ودوره ، ونبرز واقعه وأبعاده الحقيقية . فالانسان العربي ، ربما لم يتح له ، حتى الان ، الاعداد التربوي السليم ، فكل مناهج التربية والتعليم وريثة عصر الانحطاط الطويل ، ومحكومة بتوجيه الاستعمار او الانظمة الفاسدة على الاغلب . وبالاضافة الى ذلك ، فقد ظل هذا الانسان يخضع في معظم الاحيان لتأثير عناصر الضعف في التراث اكثر مما يخضع لتأثير عناصر القوة فيه ، وكلنا يدرك دور الحفظ من التراث في تنشئة المتعلمين والمثقفين وتشكيل تفكيرهم . او لا نزال نحمد في الكاتب كثرة المحفوظ والتضمين والاقتباس ؟! والشعراء ، على اية حال ، من اولئك او من هؤلاء ، ظلوا طويلا يخضعون لهذا الحفظ في تكوينهم الفني ، فانطبع كثير من انتاجهم بطابع الكليشيهات، مثلهم ، في معظم الاحيان ، مثل خطباء المساجد . ولا شك ان هذا النهج في عمومه ، قد أصل سمة اساسية في خلق الانسان العربي ، سمة الميل الى المثالية والابتعاد عن الواقعية والروح العلمية الى حد كبير ، ولذلك كنا نرى الشاعر او الفرد العادي ميالا دائما الى انتهاج سبيل الذروة والمبالغة في تفكيره ، فاذا نظم الشاعر في اي امر ، بدا كأنه ينقل من الديوان العام وليس من لوح الوجود امامه او في نفسه وواقعه ، ودون ريب ، فلقد أعان على هذا الاتجاه في النشء أثر الخطب المسجدية التي تلقى بروح كل العصور السابقة الا روح عصرنا الذي نعيش فيه ، وليس له فيها الا الوسيلة واللسان . وهذه الخطب لها تأثير قوي في نفوس الناشئة وعامة الناس الذين يتحكم فيهم ، بدورهم ، أصفاد الصبر والرضا على أية حال ، مما فيه دلالة الارتباط الحميم حتى مع الجهل والتخلف .

ونستطيع ان نقدر هذا الواقع الذي كان على الشاعر الفلسطيني ان يعيش فيه اذا وازنا بينه وبين واقع المجتمع الصهيوني الذي يعتمد كل الاسس العلمية في تنشئة الفرد ، وخلق الروح الجماعية والتعاون والنظام في المجتمع ليسير الجميع في اتجاه واحد ونحو أهداف محددة ومشتركة ، مما يعكس صعوبة المهمة التي تحاول الكلمة اداءها في المجتمعات العربية عموما . واذا اضفنا الى ذلك كله ان مجرد احترام انسانية المواطن العربي ، كأدنى حد من حقوقه الانسانية ، لم يتحقق بوجه عام ، وان اختلفت درجة ذلك التحقق ، في اي من الانظمة التي توانرت عليه ، أدركنا قسوة الامراض التي ظلت تنخر المجتمع العربي ، وفي فلسطين بخاصة ، وقد امتدت جذور هذه الامراض في اعماق المجتمع ، وازهرت على سطح الحياة فيه ، فجسدتها العصبيات وصراع الاحزاب والوجهاء ، وتبعية الحكام للاستعمار ، ولذلك كان الموقف الوطني يتحول في كثير من جوانبه الى الانشغال بامور ثانوية ومعارك جانبية تستهلك طاقة المقاومين وتستنفدها . ويتبين ذلك في عهد الانتداب وفي المنفى ، حيث يظهر الواقع في اقصى حالات الخداع والتضليل ، الامر الذي ساعد على افساد المعاناة ، واعان على زيفها في معظم الاحيان ، بسبب ما يبدو فيه المجتمع من مظهر العروبة والوطنية ، بينما هو محكوم بالفعل لادوات الاستعمار والتخلف التي لا ترعوي عن تلفيق التهم والصاقها بالشعراء الوطنيين . وهذا الجو الفاسد كثيرا ما يخلق الاضطراب والحيرة في العواطف ، والارتباك والبلبلة في التفكير ، على عكس الجو الذي عاش فيه شعراء الارض المحتلة ، وقد تحدد العدو امامهم ، وقاسوا من ظلمه واضطهاده ، فوضحت امامهم الاهداف ، وانتظمت لديهم العواطف ، وتحدد التفكير فتبلورت معاناتهم في تماثل وانسجام ، وفي جو نفسي متماسك ونقي في عذابه وآلامه ، فجاءت سليمة صادقة ، واتسم شعرهم بما ينبعث فيه من حيوية وتأثير فاعلين .

ويتبين دارس شعر المقاومة الفلسطينية احساس هذا الشعر بقضية الوطن ومشكلاته كلها ، وكيف حاول ، بطريقته الخاصة ، ان يستنبت القلق في مجتمعه ، وان يبث فيه الشعور برفض الواقع وبعدم الاطمئنان اليه ، والطموح الى تغييره . ومن هنا يمكننا ان نقول ان هذا الشعر

ابو سلمى

ابراهيم طوقان

* * *

حاول ان يوقظ في مجتمعه الشعور بالحياة ، وان ينبهه على اخطارها من حوله ، فكان له بذلك دور ابعد من كونه مجرد مرآة لحياة هذا المجتمع ، واعني بذلك عمله المستمر على تهيئة العوامل النفسية في هذا المجتمع لرفض واقعه وتغييره . ولكن الى اي حد نجح في هذا الدور ؟ وكيف كان تأثيره وفاعليته في قضية الوطن فيما آلت او ستؤول اليه ؟ لقد عبر احد شعراء المقاومة عن فعل الشعراء ، فشبهه بحرقة النمل ، وهذا تصوير دقيق فعلا ، فالواقع المادي لا يخضع بسهولة لرغبات الشاعر او الفنان ، وخصوصا ان الواقع الذي يتعامل معه هو واقع البشر والنفسية الانسانية المحيرة . ولذلك فان خمائر التحول التي يشارك الشعر في خلقها او تنميتها في النفوس تكمن في داخل المجتمع وتعطي مفعولها في مهل . وهذا ، طبعا ، ما يفسر لنا بطء التغيير وصعوبته في المجتمعات ، حتى في حال وقوع ذلك الانبثاق الهائل للارادة الجماعية ممثلا في الثورة التي تشبه ان تكون حمّاما للامة . وخمائر التحول التي كان شعر المقاومة الفلسطينية يشارك في خلقها او تنميتها ، كانت دائما لا تجد المناخ الصحي لتفعل خلاله فعلها في تهيئة النفوس وخلق الانسان المقاوم : ففي عهد الانكليز ظلت الكلمة تعوقها في الحقيقة قوى الوجاهات في المجتمع الفلسطيني الى جانب ما جابهها من قوى الاعداء الاصلاء ، وكلها قوى مادية تدعمها امكانات القوة والتنظيم بما لها من اثر عملي ومؤثر في سير الاحداث وفي اضعاف قوى المجتمع الوطنية . ومع ذلك فان الشعر قام بدور بارز في مجابهة المخططات الاستعمارية والاطماع الصهيونية ، فنبه على تلك الاخطار وحذر منها ، ودعا الى مقاومتها ، فكان شعر توعية وتعبئة على الرغم مما اعترى صوته من احساس الالم والحزن والمرارة في غالب الاحيان . ومع هذا الدور الذي حاول الشعر ان يقوم به ، فهل كان له الاثر المتوخى في مقاومة هذه المخططات والاطماع ؟ وهل نحس فيه مقاومة التحدي الذي فرض على الوطن ؟ وهل كان في مستوى هذا التحدي ؟

لقد اشرنا الى شيء مما كان يعتور حياة المجتمع العربي في فلسطين ويتحكم فيها دون ان يكون لليقظة القريبة العهد في نهاية العهد التركي اثر كبير فيها ، فهي ، على اهميتها ، لا تعدو ان تكون ململمة لم يتح لها ان تأخذ مداها الطبيعي لتغمر باشرافها جوانب الحياة الجماهيرية ، بسبب ما لاقته من تسلط الاعداء ومن قصور القوامين على شؤونها . وهي بالتالي جزء من اليقظة العربية في هذه المرحلة من حياة المنطقة ، دهمتها اخطار اعنى واشد من تلك التي اختصت بها بقية اقطار الوطن الكبير ، فاجهضت فيها عنصر القوة واخبت أنوارها . ولم يكن شعراء هذه الفترة ، على اية حال ، سوى ابناء هذا المجتمع ونبت ثقافته ، ومع ذلك فاننا نرى انهم حاولوا التصدي للاخطار التي دهمت وطنهم ، وان تأخر ذلك قليلا عن بدء الاحتلال ، كما تثبت النصوص الشعرية التي بين أيدينا على الاقل ، فيما عدا شعر (وديع البستاني) اللبناني المولد والعشيرة ، الفلسطيني التوطن والاقامة ، فقد ارتفع صوته مبكرا ليفضح هذه المخططات والاطماع (١) ، وذلك لاسباب متعددة قد يكون من اهمها الظروف الخاصة التي دخلت فيها بريطانيا فلسطين حليفا للعرب ومخلصا ومنقذا لهم . وهذا ، على الاغلب ، هو ما جعل شعر الفترة الاولى من الاحتلال حتى مطالع الثلاثينيات ، يتوجه في معظمه الى مقاومة تحدي الخطر الصهيوني الذي احسه الناس اكثر مما احسوا الخطر الاستعماري ورأوه كأنه منفصل عنه . ومهما يكن من امر ، فلم تكن مهمة الشعراء ، في ظروفهم تلك ، سهلة او بسيطة ، فعدم وضوح الفكر والاهداف وتخلخل الحياة في المراحل الانتقالية من حياة الشعوب يخلق كثيرا من الصعوبات في وجه الفنان او الشاعر ، خصوصا في مجتمع يعتوره كثير من امراض الحياة المزمنة ، ولذلك نرى ان بعض الشعراء قد انصرف همهم الى معالجة أوضاع المجتمع وما يسوده من تنابذ وأحقاد وصراع وعصبيات ، كان خيرا انهم هم لم يغرقوا في مستنقعاتها . ومع ما نلمسه من التماعات فكرية لدى بعضهم احيانا ، فلربما لم يرق شعرهم الى مستوى التحديات التي فرضت على الوطن ، وما كان له ان يرقى في مجتمعه وظروفه وامام الاصرار البريطاني والصهيوني بكل ما لديهما من قوة وسلطة ومال سخرت كلها في خدمة اغراض سياسية ومخططات استعمارية مرتبطة باهداف واستراتيجيات دولية نحس ان بعض الشعراء تمكنوا احيانا من استشفاف أخطارها ، فانطبع شعرهم لذلك بطابع الالم والاسى والمرارة ، وعلى الرغم من أننا نقدر ان هذا الشعر لم يكن في مقدوره ان يوجه الاحداث ، فاقتصر على متابعتها الى حد كبير ، فانه كان أسبق من (زعماء البلاد وسياسييها) في بلورة المقاومة وتحديد اتجاهها الصحيح ، كما كان اسبق منهم في كشف مخططات الاعداء واطماعهم ، وهم ، الزعماء ، لم يقصروا في اعانته وتعضيده لاداء مهماته وحسب ، وانما ظلوا عبئا ثقيلا عليه وعلى الوطن ، مما أفقده كثيرا من اثره ، واحبط كثيرا من جهد الحركة الوطنية الشعبية نفسها ، وعطل ، بالتالي ، الجزء الاعظم من طاقاتها .

وعرض شعر المقاومة الفلسطينية الى مسألتين جوهريتين في أساس الغزوة الصهيونية ، الهجرة اليهودية ، وبيع الاراضي . ومن الملاحظ ان الشعر الذي قيل في الهجرة وفي مقاومتها وكشف اخطارها قليل ، ويبدو فيه شيء من التناقض في موقف الشعراء امام هذا الموضوع . ولقد يكون هذا التناقض امرا طبيعيا في ظاهره ، فالشعراء ، يخضعون ، من ناحية ، لموروثات عميقة الجذور تستهين كلها بجنس اليهود ، ولكنهم في نفس الوقت ، يلمسون الاخطار التي يخنق هؤلاء (المستضعفون) وطنهم بها . ولذلك لا غرو ان نجد الشاعر الواحد يستهين بهم مرة ويستعظم خطرهم مرة اخرى ، فهم أشقى أمة ، وهم بغاث الطير او غربانها ، ومع ذلك فانهم يهددون البلاد وطيورها الجارحة . وقد لمس الشعراء عدة مظاهر من اخطار هذه الهجرة التي تحدق بالوطن ، وتوسلوا بعدة صور في تجسيد هذه الاخطار من اجل اثارة الجماهير وتحريضها ، فالهجرة تشبه رجل الجراد مرة ، والسيل العرم مرة اخرى ، ومرض السل مرة ثالثة ، وقد اصبح رجال البلاد امامها (نساوين) او غرباء (٢) . ولجأ (ابراهيم طوقان) بفنه الساخر الى ابراز الموقف كله ، حتى لقد ربط بينه وبين اخطار الطبيعة ونكباتها (٣) ، فربط بين طوفان السماء في الفيضانات التي لحقت بمدينة (نابلس) عام ١٩٣٥ ، وبين طوفان الهجرة اليهودية الذي طغى

---

(١) انظر ديوانه « الفلسطينيات » ـ طبعة بيروت ١٩٤٦ ـ : ٩٨ مقطوعة (جنة اليهود) ، ٨٢ قصيدة (الدولة الرضيع) ، ٨٣ قصيدة (الخطبة الخرساء) ، ٨٧ قصيدة (الفتوى) ، ١٠٠ مقطوعة (الحكم الذاتي) ، ١٠٤ قصيدة (الرد على الرصافي) ..

بفضل وعد بلفور مهددا الوطن ومحيلا حياته الى كارثة من فصول لا نهاية لها . ولم ينس ابراهيم أن يضيف ، ساخرا ، ملمح الهجرة ، بثقل دمها ، الى ملامح ذلك الثقيل الذي صوره في احدى مقطوعاته (٤) ، وجمع فيه كل مساوىء الحياة في فلسطين تحت الاستعمار البريطاني ، فكان تصريحه بغرض الهجرة اليهودية يحمل ايحاء نابضا بثقل وطأتها وكراهة الناس لها ، واشمئزازهم منها و (انغلاقهم) من استمرارها ، ولربما كان ابراهيم طوقان الشاعر الوحيد الذي خص الهجرة بمقطوعة مستقلة قصرها على هذا الموضوع ، وكان فيها ذكيا في استغلاله الفكرة الشعبية المتداولة عن التشاؤم بالعدد ثلاثة عشر ، فقد جمع مأثور هذا العدد في التشاؤم ليجد أن العدد (١٠٠) (٥) يفوقه في سوئه ومصائبه إذ كان هذا الرقم متداولا بكثرة في سجلات الهجرة اليهودية الشرعية بسماح سلطات الانتداب ، وغير الشرعية من وراء ظهرها ، وان كانت عنها راضية . ومع ما كان ينبغي من النظر الأكثر عمقا وتركيزا الى هذا الموضوع الخطر، فهل كنا نتوقع ان يوقف الشعر الهجرة اليهودية؟ ربما كان لهذا الشعر حظ من التأثير في تنبيه الناس وايقاظهم على اخطار هذه الهجرة ، كما كان له مثل هذا الحظ في التنبيه على مفهوم الارض واهمية الارتباط بها ، وقد جسد من هذه الناحية احد هموم الوطن وبلاياه المتمثلة في مرض السمسرة وسماسرة بيع الارض ، حتى لقد خلق من هذه الفئة ومن حرفتها المهينة مفهوما خاصا متميزا لا يعرف ، بمدلوله الخاص ، في خارج فلسطين ، ولا يفوقه ، بايحاءاته كلها ، مفهوم اية لفظة من ألفاظ اللغة في داخل فلسطين نفسها . ولم يكن سوى الشعر بقادر على أداء هذا الدور ، وخلق هذا التراث المنفر الذي لا تمحو الايام اثره او مدلوله من ذاكرة الشعب او من قاموس القضية (٦) . وقد سجل الشعر من هذه الناحية « تنبها وطنيا مذهلا ، متفاعلا في الحقيقة ، اخذا وعطاء مع التنبه العام الشعبي الذي ادرك جيدا حقيقة المرامي الصهيونية البعيدة ، وتجاوز علاقته المادية القديمة مع الحقل والمزرعة ، الى مستوى علاقة حب وطني مع الارض ، عارم وصميم » . (٧) ومع كل ذلك ، فان دولاب الموقف العام في البلاد طمس كل هذه الآثار نحو هاتين المسألتين ، لانه كان اقوى فعلا منها ، وكان يسير في عكس اتجاهها ، فلم يتح لهذا الشعر اي مناخ صحي تنمو آثاره فيه .

وفي فترة الثلاثينيات ، انفترة الثورية في حياة فلسطين ، اذ اشتملت على اهم ثورات الشعب وانتفاضاته ، اصبح للشعر دور اساسي

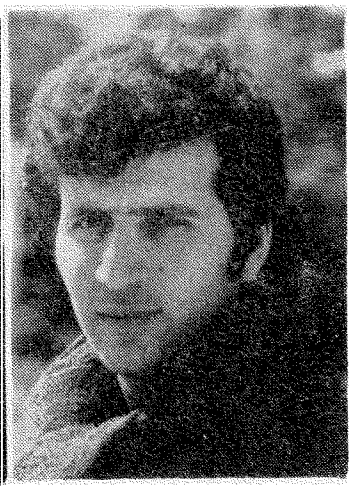

سميح القاسم محمود درويش

* * *

في الكفاح المباشر ضد الانتداب البريطاني ، فقد افتضحت تماما مواقف الحكومة البريطانية ، وانكشفت سياسة الانتداب في موالاتها الحركة الصهيونية وتبنيها مخططاتها واطماعها في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، فراح الشعر يكشف هذه السياسة ويبين مساوىء الاحتلال ويعلن رفض الانتداب والوصاية وما انحقه الانكليز بالوطن من نكبات ، وغلب على صوت الشعر طبقة القوة والغضب ، وقد لعب دورا مهما في الهاب حماسة الجماهير وفي انضاج المفاهيم الوطنية لدى عامة الناس . ولم يكتف الشعر في هذه المرحلة بكشف الواقع فقط ، وانما بلغ ، وهو يعمل على تمهيد الطريق الى المستقبل ، حدا من الكشف والرؤيا ارتقى به الى درجة النبوءة الصادقة بفضل ما تحلى به الشعراء من وعي بالقضية الوطنية وبالثورات ، وقد لقيت كلها استجابة عامة من الشعراء الى حد الالتزام الواعي . ورأى الشعر في ثورة الشيخ (عز الدين القسام) طريق الحياة والفداء ، وقد مثلت ، بحق ، الاتجاه الى الاسلوب الثوري العملي في المقاومة ، وحددت هذه الانتفاضة ، برغم فشلها ، المنحى الاصيل ومعالم الطريق الحقيقية للنضال ، وغدت رمزا لحركة الثورية الشعبية التي سادت فلسطين بعدها ببضعة اشهر، حيث حمل شعراء الجيل الجديد المهمة الصعبة بتأديتهم رسالة الكلمة .. وأدى بعضهم ، بالمزاوجة بين الكلمة والسلاح دور المثقف الثوري الحقيقي ، فكانوا صورة صادقة للوجدان الفلسطيني المقاوم ، ولآمال شعبهم ومطامحه ، ولحقيقة عواطفه في حرارتها وتلهبها العنيف ، وغدوا بذلك شعراء المقاومة الحقيقيين ، اذ اصبح العمل السياسي الثوري بالنسبة لهم زادا يوميا ، كما أصبح شعرهم اداة من ادوات هذا العمل السياسي الثوري ، وبه رعوا ثورة شعبهم وحدبوا على ثوارها ، وجعلوا شعرهم حارسا لقيم الامة ، واداة وثيقة الاتصال بوعيها التاريخي ، وسجلا لمواقف الثورة واحداثها ، فجاءت دواوينهم (٨) تعبيرا وجدانيا عن اعزاز الوطن والتأسي بأمجاده وتاريخه ، واكبارا لنضال الشعب

---

(٢) انظر وديع البستاني ـ الفلسطينيات : ١٢٧ قصيدة « حرب الاقتصاد » ، ١٥٧ قصيدة « يا رب أصلح » ، ١٨٣ قصيدة « فتنة المبكى » الشيخ سليم اليعقوبي ـ قصيدة « سياسة التفريق والتمزيق » ـ جريدة (الجزيرة) عدد ٤١ ـ يافا . ٢٢ حزيران ١٩٢٤

(٣) ديوان ابراهيم (الطبعة الثانية ـ بيروت ـ دار الآداب سنة ١٩٦٦) : ٨٢ ـ مقطوعة « زيادة الطين » .

(٤) مقطوعة « الى ثقيل » ـ جريدة « الدفاع » عدد ٢٥١ ـ يافا ١٧/ ٢/ ١٩٣٥ ، لم تنشر في الديوان

(٥) ديوانه ـ الطبعة الثانية : ٧١

(٦) انظر : ديوان ابراهيم طوقان ـ الطبعة الثانية : ٦٩ (السماسرة)، ٢٦ (الى بائعي البلاد) . وانظر كذلك الصفحات ٣٢، ٢٩، ٨٤ . وانظر كذلك برهان الدين العبوشي في ديوان جبل النار (الشركة الاسلامية للطباعة والنشر المحدودة ـ بغداد ١٩٥٦) : ٢١ ـ قصيدة (بيسان) . ١١ ـ المرج الحزين .

(٧) يوسف الخطيب ـ مقدمة ديوان الوطن المحتل (دار فلسطين ـ دمشق ط ١ ١٩٦٨) : ٣٥

(٨) اقرأ نماذج من هذا الشعر لدى :
عبد الرحيم محمود ـ ديوانه (عمان ١٩٥٨)
برهان الدين العبوشي ـ انيازك (مطبعة دار البصري ـ بغداد ـ ـ جبل النار
عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) ـ المشرد (دمشق ط٢ ١٩٦٣) .
وديع البستاني ـ الفلسطينيات
ابراهيم الدباغ ـ الطليعة ج٢ (مطبعة حجازي ـ القاهرة . ط١ / ١٩٣٧) .

وابراز دوره وشحذ عزيمته ، ووثائق تاريخية لهذا النضال نقرأ فيها احداث المعارك واخبار المظاهرات ، وتعظيم الشهداء ، وسير الاضراب والحث على مواصلته والاستمرار فيه ، وابراز دور الملوك والامراء العرب في ذلك الوقت وبتبين دورهم في وقف الثورة الشعبية وخـــداع الجماهيـر .

واذا كانت القضية قد سارت الى المهاوي التي اراد الشعر دفعها عنها ، فان ذلك لم يكن بسبب عجزه او قصوره الذاتي عن اداء وظائفه ومهماته الوطنية ، فنحن نحس ان شعر المقاومة في هذه الفترة يتسم بشيء من العنف لانه اصبح يرتبط بواقع ثوري الى حد كبير ، ففدا يمثل صوت الغضب والقوة ، وان لم يتجرد من سمات الالم والاســى والمرارة التي رسم بها في المرحلة السابقة . ولئن كان السبب الاهـم في وسمه بهذه السمات في المرحلة السابقة احساس الشعراء بما حاق بوطنهم من أخطار الصهيونية وبلاياها ، فلربما كان سببه الاكبر في هذه المرحلة خيبة الامل التي طفت على الشعراء بسبب أزمة الزعامة والعمل السياسي في البلاد ، مما دعا معظم الشعراء الى الدعوة لنبذ هـــذه الزعامات واللجوء الى الشعب والاعتماد على عنصر الشباب فيه ممثلين في ذلك صوت الحكمة والواقع والضمير . وعلى العكس ، فان تجسد اخطار الصهيونية وافتضاح السياسة الاستعمارية البريطانية في هـذه المرحلة اكثر مما كانت عليه في المرحلة السابقة ، قد أورثا الشعـــراء فكرة التبشير بالثورة والدعوة الى الجهاد والفداء ، وخلق الانسان النيتشوي الجبار ، فاتسم معظم شعرهم لذلك بسمات العنف والقوة والغضب ، وقد اصبحوا يجدون امامهم نماذج من ابطال الشعب المثقفين والعاديين (القسام وفرحان السعدي وابو كمال ...) يقدمونهـــا للشباب والوطن للفخر بها والسير على طريقها . وقد خاض بعـــض الشعراء تجارب النضال والثورة ، فاعتقل بعضهم ، وحمل الســـلاح بعضهم الآخر . ويمكن ، بحق ، ان يعتبر الشاعر الشهيد (عبدالرحيم محمود) نموذجا لشعراء هذه الفترة ، فقد جمع في شعره كل سمات المرحلة ودعواتها ، فكان صوت الحكمة والواقع والضمير ،اذ التقى لديه صوت القوة والغضب وهو يدعو الى الثورة ويخوض غمارها بنفسه ، وصوت السخر والتهكم وهو يدعو الى نبذ الزعماء المزيفين ويفضـــح مواقفهم ، وصوت الالم والاسى والمرارة وهو يضع نبوءته بمصير الوطن امام شعبه وامته . ولم يكن اصدق ولا اصفى من صوت عبد الرحيم ، فقد جسد فيه موقف المثقف الثوري الحقيقي ، وظل يتمرد دائما على الحياة المنتظمة ، مثال المجاهد المؤمن الممسك عنان فرسه ، كلما سمع هيعة طار اليها ، حتى لكأنه ، يصدق حدسه ، كان يرثي نفسه من خلال ما رثى به احد زملائه الشهداء (٩) من قبـل أن يستشهـد هو على ثرى فلسطين بسنوات . وكذلك كانت المشاركة الجماهيرية فـي الاضراب الشامل الكبير ، كما سجلها الشعر ، نموذجا من نماذج المشاركة العامة في مقاومة التحديات المفروضة على الوطن . ولهذا كله لم يكن غريبا ان تتجسد في شعر هذه الفترة صورة الشعب وهو يعاني ويناضل وينزف دما ، فجاء الشعر لذلك نابضا بوجدان الجماعة ، ومثقلا بهمـــــوم الجماهير ، وكان لا بد له ، وقد التزم باهدافها ، ان يبعث فيها ، الى جانب تفجيره نبض القوة والغضب والثورة ، مشاعر التحسب والقلق على المستقبل بسبب الاخطار الداهمة ، ليقوي لديها نبض القوة ، ويدفعها الى معالجة امراضها المتمثلة في زعاماتها بصورة خاصة . ومن هنا كان الالهام بالنبوءة بمصير الوطن لدى بعض هؤلاء الشعراء (١٠)

---

(٩) انظر ديوانه : ١٣ ـ قصيدة « الشهيد » .

(١٠) انظر : ابراهيم طوقان ـ ديوانه (الطبعة الثانية) : ٨٦ ، وديوان عبد الرحيم محمود : ٤١ ـ قصيدة « نجم السعود » ، وشعـــر محمد حسن علاء الدين ، في كتاب (شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية ـ نشر نادي الاخاء العربي بحيفا ـ دون تاريخ) : ١٧ ـ قصيدة (شبح الرحيل) انظر ايضا صفحة ٢٠ .

بفضل ما تحلوا به من وعي على القضية واستيعاب لابعادها . ومن ثـم ومع تدهور اوضاع الوطن تضخم الاحساس بمصير البلاد لدى هؤلاء الشعراء ، فخفتت في شعرهم نبرة الامل ، وطفت سمة الحزن ، تخوفا من المصير المرتقب ، وان حاولوا ان يلفوا الطابع الحزين في لفائف من عظمة الامجاد والفخر بالماضي. ومع ما ساد فلسطين من صدامات ومعارك بين العرب والصهيونيين بعد الحرب العالمية الثانية ، تحولت نبـــرة الشعر الى الصراخ والاثارة والتحريض على القتال . ولكن ما ان تمـت المؤامرة بتسليم البلاد الى العدو ، وافتضح في هـــذه المؤامرة دور الملوك والحكام العرب بخيانتهم القضية وتبعيتهم للاستعمار ، حتـــى استحال هذا الشعر حمما من الحقد تنصب على هؤلاء الملوك والحكام ، والسنة غضب تدعو الى خلعهم والانتقام منهم .

وفي المنفى ، حيث رفع الستار عن الفصل الاول في مسرحيـــة (الخروج الكبير) التي (قدر) فيهـا ضياع الشخصية الفلسطينيـة وتمزقها استحكمت الحيرة وسيطر الذهول على (اللاجئين) بضع سنوات انقلبت حياتهم خلالها وبعدها الى حياة ذل وجحيم ، ظلت معها الحدود التي مزقت عندها بلادهم بين الدولة الصهيونية وجاراتها داميـــة باستمرار ، ينزف منها دم الشعب الفلسطيني بخاصة ، من جـــراء اعتداءات (اسرائيل) طوال الخمسينيات والستينيات ، فقد ظلت هذه الحدود قطعة من اللحم الآدمي الحي يعلن نزف الدم الدائم عن استمرار الحياة فيها والاستعداد لاعادة نسيج الحياة العربية في الوشائج التي تقطعت بسكاكين النكبة .

وفي ظل هذه الحياة الكئيبة كـان على الشعراء الفلسطينيين ان يؤدوا بشعرهم مهمات جديدة لشعبهم المشرد المقهور، فقد اصبح لزامـا على الشعـر ان يتحول من الموقف البنائي المحض للشخصية الفلسطينية الى موقف الدفاع عنهـا وانقاذهـا من مشاعـر القلق والتمزق والانسحاق في ظل الحصار والواقع القاسي الذي فرض على اللاجئيـن ان يعيشوه. وبمعرفتنـا الواقع العربي الذي قدر ان يكـون منفى هذه الشخصية، نستطيع ان نقدر مدى التناقض الذي كـان لا بـد لشعـر المقاومـة ان يعيشه مع هذا الواقع متمثلا في قوى الانظمـة المتحكمـة فيـه، خصوصا اذا اخذنا بعيـن الاعتبار مخططات الصهيونيـة والامبرياليـة العالميـة التي تجنـد لهـا طاقات علميـة ومادية هائلـة من اجـــل تنفيذ سياستهـا وتحقيق اهدافهـا في قتل الشخصية الفلسطينيـة المتعمد وامانـة قضيتها والتخلص منهـا عن طريق مشروعات توطيـن اللاجئيـن التي ظلت هذه القـوى تداب في الحـاح علـى تطبيقهـا وتنفيذهـا . وبهذا نستطيع ان نتخيل صورة الواقع الزائف الذي قدر لشعراء المقاومـة ان يحيوه وان يشعروا شعرهم فيه ، وهو واقع تخلخلت فيه المفاهيم والعلاقات في الحياة التي كـان لا بد ان تنتقل عـــدوى امراضهـا الى هذا الشعـر في صورة او في اخرى . وعلى الرغم مـن ان هذا الواقع قد حال بيـن العمل الوطني او القومـي وبيـن العدو الحقيقي ،بحيث عزل شعـراء المنفى عن ميـدان الفعل الذي يغني الكلمة بمدلولات الحركة والحيوية ، ومع كل ما لحـــق شعرهم من امراض الواقع العربي المهين ، ومع مـا يحمله من مظاهـر الضعف الفني احيانا، فلربمـا ظل هذا الشعـر من اكثر مكونات الصورة صحـة واشراقا ،ومن اقواهـا على الفعل والتأثير . ومن هنـا نستطيع ان نقدر صعوبة الدور الذي كـان لا بـد ان يلقى على عاتق الشعـر في هذا الواقع الـذي يجب الا ننسى اثر التقاليـد والظروف الخارجيـة البليدة وسيطرتها القاهرة فيه ، الامر الذي ظل يشعل الصراع العنيف بيـن عقـــل الانسان وعواطفه ، كمـا ظل يعمق الانفصام بيـن الكلمة وبيـن الفعـل في هـذا المجتمع المريض ، ممـا زاد في صعوبة المهمـة وبطء مفعولها. ونحـن اذا كنـا نتحدث هنـا عـن شعـر المقاومة الفلسطينية ودوره في هذه المهمـة ، فاننـا لا نقصد ان نقصر هذا الدور عليه وحده دون سواه من عوامل التغيير في الحياة العربية ، ومنهـا الشعـر العربي

نفسه ، وانما نركز هذا التركيز على شعر المقاومة الفلسطينية جريا مع البحث الخاص بين ايدينا .

ان المطالب الطبيعية التي ظلت تسيطر على اذهان الناس وتطغي على تفكيرهم ، وتشكل مادة احلامهم ، هي العودة الى فردوسهم السليب . ولكن الواقع العربي بانظمته المتآمرة وحكامه الخائنين ،ظل يقف حائلا دون اية حركة في هذا الاتجاه ، فهم ، بالاضافة الى خياناتهم ، مرتبطون باتفاقيات هدنة مع العدو من ناحية ،ومسخرون لخدمة اغراض الاستعمار الذي يسيطر عليهم ويوجه سياساتهم من ناحية اخرى . ولذلك لم يكن اي عمل فلسطيني او عربي على مستوى الشعب والجماهير ليستطيع ان يجابه العدو الاسرائيلي مباشرة ، حتى ولا العدو الاستعماري الرابض بنفوذه على الارض العربية ، الا من خلال الاصطدام بالسلطة العربية في هذا البلد العربي او في ذاك . وهكذا ، فان الانظمة العربية ، بالاضافة الى ان ايا منها لم يكن في مقدوره ان يفكر او يخطر في باله ان يفكر جديا في الاستعداد لتحرير فلسطين ، فانها كانت درعا واقية تحمي العدو من اي عمل شعبي ضده ، بل ومثلت في هذا السبيل دور اجهزة مخابرات تمنع اي تفكير في مثل هذا العمل ، فتلاحقه وتقمعه في مهده . ومن هنا كان لا بد لاية حركة وطنية فلسطينية من الاصطدام بانظمة الحكم العربية ، وقد فرض هذا الاتجاه وساعد على التحكم فيه ان الفترة اللاحقة على النكبة كانت فترة نضال شعبي للتحرر الوطني من الاستعمار ونفوذه في كافة انحاء الوطن العربي . ولما كان العرب الفلسطينيون قد توزعتهم (المنافي القومية) في انحاء الوطن الكبير فقد وجدوا انفسهم بشكل طبيعي ينخرطون في الحركات العربية القومية للعمل على تحرير البلدان العربية ، ولذلك كان الاصطدام محتما مع هذه الانظمة ، حيث تقف عمليا في صف الاستعمار المؤيد للصهيونية وخالق دولتها ، لان التفكير بتحرير فلسطين لا بد له الا ان يكون من خلال تحرير البلاد العربية التي تقف حكوماتها درعا تحمي في صورة او في اخرى ، دولة العدوان على الارض العربية الفلسطينية ، فلا تستطيع المجابهة مع العدو او المساس به الا من خلالها ، وبهذه المثابة ، فنحن نعتبر شعر النضال الفلسطيني في منافي اصحابه شعر مقاومة ضد العدو الاسرائيلي وضد وجوده، لتوحد هذا الوجود حقيقة على وجود الاستعمار الذي يرعاه ووجود الانظمة العربية التي تساعد على حمايته ، ولانه بالتالي يقف في خدمة القضية وفي صفها . ومن ناحية اخرى ، فان ظروف القضية الفلسطينية في هذه المرحلة قد اختلفت عن المرحلة السابقة فقد استمات كل اعدائها في وضع حد لها ، بتذويب اصحابها وتوطينهم ، وادخال اليأس الى نفوسهم من امكان العودة الى ديارهم، ورافق هذه المخططات جو الارهاب العربي المعهود الذي اختص فيه الفلسطينيون بالحجر الكامل على كل تفكير بقضيتهم الا ما كان متمشيا مع مخططات الحكام . ولذلك فقد وئد كل عمل او تفكير وطني حقيقي في القضية ، فلم يرتفع اي عمل رسمي او شعبي الى مستوى الجد والمسؤولية نحوها ، بغض النظر عن كل ادعاءات الحكام وخطبهم واعلاناتهم التي لم يقصد منها في اية فترة الا الاستهلاك المحلي وحسب . ومن هنا وجد الشاعر الفلسطيني نفسه مضطرا ، في غالب الاحيان ، الى ان يقتصر في معظم شعره على فضح الحكام الخائنين ومهاجمتهم واعلان النقمة عليهم ، وعلى تصوير نية اللاجئين واشجانهم وواقعهم البائس بعرض صور المأساة وحياتهم في مخيماتهم ، وبكاء البلد الضائع وعلى بث روح الاحتمال والامل ، وخلق العزم والتفاؤل لدى ابناء وطنه استعدادا للجولة الثانية التي لا بد منها كما تحتم قناعات الضمير الشعبي وطبائع الامور من نحو ، واطماع العدو من نحو اخر . وقد ساعد هذا الشعر على لم شظايا الشخصية الممزقة ، وتربية اجيالها وتغذيتها بالحقد المقدس على كل اعداء الوطن ، حتى من خلال رومانتيكيته وخطابيته بكل آثارهما المحدودة والقصيرة الامد ، وادى دورا حميدا في الاحتفاظ بآمال الناس يانعة ، وفي قتل بذور اليأس والقنوط التي حاول الاعداء بذرها في نفوس الناس بكل الوسائل، فخلق روح الصمود والتمسك بالحق في الوطن السليب . ووجد الشعراء في ذكريات الماضي في الوطن ، اغلى ما حمله اللاجئون من ديارهم ، خير ما يبقي على الرباط الوطني المقدس الذي يحاول الاعداء فصمه وان يعين الزمان على نسيانه . فهذا الماضي ،بالنسبة لشعب تخلخلت اسس حياته ، وفقد كل شيء حتى هويته، هو سر هذه الحياة لانه المعادل الرمزي للوطن والكيان اللذين فقدهما . فالحقيقة ان حياة هذا الشعب تدور كلها في فلك هذا الماضي وفي نسيج ذكرياته واحلامه التي لا تيأس ولا تنضب، بل هي التي تنضج فيه ، على الدوام ، حلم العودة . وهذا الماضي ، ان كان مهما بالنسبة للاجيال التي عاشته ، فهو بنفس المقدار من الاهمية . ان لم يكن اكثر اهمية ، بالنسبة للاجيال الطالعة من ابناء فلسطين ، فمن خلال ماضي آبائهم واهليهم تعرفوا على وطنهم الذي لم يروه ،ومن خلال صور هذا الماضي واحاديثه انتصبت في اذهانهم صور الوطن، وتجسدت معالم القرية او المدينة او البيت او البيارة او الشاطىء الذهبي . وهذا ، حقا ، امر مهم بالنسبة لهذه الاجيال ، خاصة وهي لا تجد في منافيتها التربية الوطنية المخلصة ، ولا الاعداد السليم للعمل الوطني المجدي . فبمقدار ما يمكن ابقاء هذا الماضي حيا وفاعلا لدى الاجيال ، بمقدار ما يمكن الاحتفاظ بحلم العودة مهما تمر الايام ومهما تتكالب مخططات الاعداء . (وليس سوى هذا الماضي والتعلق به، يفسر لنا اصرار الشعب العربي الفلسطيني على العيش في الخيام حتى الان . وليس سواه يوضح لنا كيف تحول حلم العودة الى ارادة وفعل تجليا في ولادة حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة واشعال جذوتها). وهناك من لا يرون اي خبر في شعر الحنين هذا وفي بكاء الديار والتحسر على حياتها وماضي اهلها فيها .. ولكن هل كان من الممكن ان يغل الفلسطينيون عن اي عمل ، او يصدوا عن اي تفكير في عمل يرتفع الى مستوى قضيتهم ، ثم يمنعوا حتى من احياء ذكرياتهم في وطنهم الذي طردوا منه ، وليس لديهم اي سبيل اخر اقوى منه ؟! حقا قد لا يرقى هذا الشعر في تأثيره ووقعه الى مستوى شعر المقاومة من خلال جو عمل وطني صادق وفعال ، ولكننا ، وقد فقدنا هذا الجو واي نوع من العمل فيه ، فانه كان لا بد من خلق باب اخر نحافظ عن طريقه التسرب من خلاله على العلاقة الحميمة بالوطن والارض . فكان الاحتيال بالرحيل الى الماضي وذكرياته،حتى عبر حلم العودة ، محور المشاعر الفلسطينية ومعجزة حياة الشعب الفلسطيني التي الهمت ادبه في المنفى ، والشعر منه بصورة خاصة، وانضجت في اجياله حلم العودة . ونحن نقدر انه من الطبيعي ان يرافق هذا النوع من الشعر عناصر وهن من القلق والحزن الدامع والبكاء الفاجع ، ولهذا فاننا نميز هذا النوع من الحزن من سواه من الحزن الباسل والالم الصلد حيث تظل المقاومة معهما في الطبيعة الانسانية « علة للتوازن ، ومفتاحا للتفاؤل والتطور ، وذودا غريزيا عن النفس من غوائل الضعف والجمود والتدمير » ، اذ ان « الحظر الذي ينسف المقاومة الانسانية او يعرقل دورها هو القلق لانه صراع التدمير وليس صراع الحيوية التي تسير في طريق معروف كما في صراع المقاومة » (11) . ولهذا ، فلربما كان هذا النوع من الشعر اجدى واقوى اثرا من شعر المناسبات والحماسة والانفعال الهائج والصوت المجلجل الداوي الذي يعتمد ارتفاع النبر والانهزام الى الماضي الموهوم

---

(11) عبدالعزيز مصطفى ـ مجلة دراسات عربية ، عدد 11 سنة ٣ (ايلول ١٩٦٧) : ٤٦ . من بحث « المقاومة في القصة الواقعية » .

او الغيب المجهول ، ويركن الى المبالغة ، حيث يفرغ بذلك الوعي، ويجعله خاويا ، اذ هو لا يعدو الآذان في معابره ، على عكس النوع الاخر من شعر الذكريات المشوب بالحزن المتفائل الصلب ، لا الحزن الهارب الهش ، حيث يترسب في اعماقنا ، ويستقطر التفاؤل الواعي الذي هو التعبير الحق عن الايمان بالمستقبل والامل فيالخلاص، وبمثله يمكن بناء الانسان روحيا ونفسيا ، فيحيله من جذوره الى انسان جديد . وعلى هذا الاساس فنحن لا نعتبر شعر الحزن والشجن سلبيا دائما ،فقد يمكننا به ان نثير الحمية بعرض الفاجعة ووصف النكبة ورسم المأساة وحياتها في شعر وصفي مؤثر ، يجسد النقمة والسخط على الحكام الخائنين ويبلور الايمان والثقة والامل في العودة . وهذا النمط من الشعر هو الذي كان يمكن ان يؤثر في جو الهمود النفسي والعزلة والقنوط الذي فرض على جيل كامل منا ان يعيش فيه ، وهو النمط الاقرب الى مفهوم المقاومة في هذا الجو ، وما عداه استحال بسهولة الى ذلك النمط الذي يعتمد التهريج والانفعال العاطفي الذي يرضي الحكام ويوافق امزجتهم ، ويداعب في سذاجة ، الآمال الشعبية .

ومع كل ما في هذا الشعر من مساوىء وقيم فنية قاصرة ،فيجب الا ننسى ما حصن به النفوس ضد اليأس والانهيار ، وما اشاعه فيها من روح الامل في العودة ، وما ظل ، باستمرار وتوجع ، يبثه من وعي اعطى به الامة ، بالاضافة الى ما لديها من تراث وحضارة، قوة الصمود والاصرار ، وابرز فيها ارادة العناء والتحدي ، حتى لقد ظل يرهص بالثورة الشعبية الفلسطينية التي غنى لها طويلا حتى وهو لا يزال يبحث عن الشخصية الوطنية لشعبه من خلال شعر النكبة والذكريات لانهاض ماضي الوطن في الاذهان ، كي يتسنى للاجيال ان تتذوق طعم الحاضر لتتمرد عليه ، وان تتشوف ابعاد المستقبل لتقدر مسؤولياته ، ولكي يتسنى لها ايضا ان تتعرف على نكهة التراب الفلسطيني وتستنشق عبيره في هذا الشعر ، لتعيش بهدف الالتحام بالارض التي لم يستطع الشعر الفلسطيني يوما ان يتحرر من كابوسها . وهكذا فقد خضع شعر المقاومة في المنفى الى كابوس الارض الفلسطينية كما خضع الى كابوس نكبتها بكل اثقالها ، حتى ليمكننا ان نقول انه شارك في افشال هدف العدو في هذه المرحلة في قتل القضية بتحقيق الصلحمعالعربوفرضاعترافهم الشرعي بالدولة الصهيونية . واكثر من ذلك ، فان هذا الشعر في مجموعه قد شارك في العثور على الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني ، وتلمس ملامحها بنبذ ما لحقها من اذلال وهوان ، وبلم شتاتها وتعبئتها بالحقد المقدس ، وبابراز ما ظل يؤرقها من شعور الاغتراب والاحساس بخيانة الصمت الذي فرض على القضية طول سنوات المنفى ، وبما تبثه من روح القوة والامل والصمود ، الامر الذي دأب به على الارهاص بالثورة وخلق انسانها في المخيمات. ومع العمل الفلسطيني المسلح تجسدت الشخصية الفلسطينية التي دعا شعر المقاومة الى البحث عنها ، فيكامل صفات المقاوم الفادي الذي قتل ذلك الصمت (١٢) ، لتتم بانطلاق اعمال المقاومة ، يقظة تلك الشخصية الحقيقية ويتجسد الاحساس العارم بها ، الامر الذي اعاد الى الكلمة شيئا من دم الحياة على الرغم من ان الجو العام ظل خانقا من حولها . ولم يكن البحث عن هذه الشخصية ولا العثور عليها مقطوعي الصلة بالحركة القومية ، فقد شارك شعر المقاومةالفلسطينية في حركة التحرر العربية من خلال مشاركة الفلسطينيين العامة في هذه الحركة بدافع الروح الوحدوي القومي فيهم . ومن خلال هذه الحركة دار البحث عن الشخصية الفلسطينية التي اتسقت مع وجهها العربي في نسيج واحد ، فولدت بنكبتها بعث الامة من ناحية، وتخلقت هي بدورها في هذا البعث من ناحية اخرى ، وتجسدت معه منجديد وبلغ من صدق هذه الصلة والاخلاص في الالتزام نحوها ، ان ظلتهذه الشخصية ، ممثلة في بعض ابنائها الشعراء ، تنبه من عواقب ضعف الامة ومن سياسات حكامها المرتجلة ، فنقرأ في افكار هؤلاء الشعراء وفي شعرهم الحدس (١٣) بهزيمة يونيو ١٩٦٧ .. نبوءة مبعثها الاخلاص للامة وصدق الالتزام نحوها . وبعد ان هبطت الكارثة بثقلها الرصاصي على النفس العربية فهدتها ورضرضتها ، لم يكن قادرا على الوثوب من بين الانقاض غير الشخصية الفلسطينية وقد ارتخت عن عنقها يد الانظمة العربية القيود ، فهبت هذه الشخصية واقفة على قدميها ، انبل وانقى ظاهرة عربية بعثت الدفء الى ضمير الامة ، وانارت امامها مشعل الامل .. فكانت اعمال المقاومة المسلحة صفحة من وجه هذه الشخصية ، وكان شعر المقاومة الصفحة الثانية لهذا الوجه المشرق .

ويمكننا القول ان هذا الشعر يعتبر ، بالطبيعة مكملا لشعر الارض المحتلة الذي تركز ، في اكثره ، على دعوة الصمود وانتظار الاهل المنفيين . وهذه الدعوة في ظروفها ، لا تقل اهمية عن ارهاص شعر المنفى بالثورة ، وقد اداها شعراء الارض المحتلة منذ مطالع الخمسينيات بنجاح كبير ، فبعد وقوع النكبة وحدوث (الخروج الكبير) وقيام الدولة الصهيونية على جزء من ارض فلسطين عام ١٩٤٨ ، تحقق اول احتلال في تاريخ البشرية كان فيه الغازي المحتل اكثر عددا من السكان الاصليين ، فقد اقام الصهيونيون على ذلك الجزء من ارض فلسطين مجتمعا صهيونيا كاملا ، بعد ان طرد اهل البلاد عدا تلك الاقلية الضئيلة منهم التي كان من حسن حظها ان ظلت تتشبث بالارض تشبث صخورها بها،فلم يشردوا الى المنافيليرميهم (اخوانهم) في قيعان الجباب يستنبتون الاحزان مكرهين ، ويجارون بلهاث الحياة .. او الموت ، ولكنهم بدلا من ذلك ، اخضعوا فوق ارض الوطن لارهاب الحكم الصهيوني ، اذ لما كانت الدولة الصهيونية الوليدة تعرف تماما حقيقة تعارض آمال الاقلية العربية مع آمالها ، استقلت من ناحيتها بتطبيق شعاريها الاساسيين اللذين بنت اركانها عليهما ، احتلال الارض واحتلال العمل ، فقد تزاوج، منذ البداية ، جانبا الاضطهاد الذي تدفقت شلالاته على الانسان العربي في ظل هذه الدولة ، الاضطهاد القومي والاضطهاد الطبقي. وبذلك تعرضت الشخصية العربية الفلسطينية في الارض المحتلة الى شتى صنوف القهر والسحق في محاولة جادة من السلطات الصهيونية لابادتها وتذويبها ، فكان الحكم العسكري الذي فرضتهذه السلطات بمثابة الحبل الذي قيدت به حركة هذه الشخصية وخنقت انفاسها لتوضع تحت عدسة الملاحظة وفي بؤرة الملاحقة . وزادت على ذلك سحب الارض من يدها ومن تحت اقدامها ، ومحاولة غسل دماغها من ثقافتها وشعورها القوميين ، ولجأت في سبيل ذلك الى عدة وسائب واساليب . ولما كانت الارض الهدف الاول والاهم في برامج الحركة الصهيونية منذ تاسيسها ، ولما كانت غالبية الاقلية العربية من الفلاحين واهل الريف الذين تشكل الارض والقرية اساسحياتهم وكل وجودهم ، مما يتعارض مع اطماع الصهيونية ومخططاتها من استملاك الارض ، فان السلطات الصهيونية ظلت تعمل على فصم الوشائج المتينة التي تربط العربي بالارض ، وعلى تاسيس علاقتها هي

---

(١٢) اقرأ لخالد ابي خالد قصيدة « قتلنا الصمت » في مجلة الآداب عدد ٩ (بيروت ـ ايلول ١٩٦٥) : ٣٠ ـ ٣٣ وقصيدة « المشرد والحصاد » في نفس المجلة عدد١٢ (كانون اول ١٩٦٦): ٢٨ ـ ٢٩

(١٣) اقرأ نموذجا من ذلك ما كتبه الشاعر يوسف الخطيب في مجلة (المعرفة) عدد ٤٩ ،السنة ٥ (اذار ١٩٦٦ ـ دمشق) : ٢٣٥ وما بعدها وكذلك قصيدة «الطوفان » للشاعر عبدالرحمن غنيم، وقد نشرت في مجلة (الآداب) عدد ٥ (مايو ١٩٦٧) : ٣٧

وتاصيلها معها ، فاستحدثت كثيرا من القوانين التي تبيح لها مصادرة الاراضي العربية الى جانب ما احيته من هذه القوانين التي ورثتها عن حكم الانتداب البريطاني ، ولجأت الى نسف عشرات القرى العربية بكاملها لتمحو هذه الوشائج ، واقامت بدل الكثير منها مستعمرات زراعية صهيونية تمكن بها من ارتباط المهاجرين الصهيونيين (بارض الميعاد !) . وبهذا عملت على تقويض القرية العربية ، قاعدة المجتمع الفلسطيني ، وبنت المستعمرة الزراعية ، قاعدة للمجتمع الصهيوني ودرعا لكيانها السياسي . وظلت مصادرة الاراضي العربية اكثر القضايا ايلاما في تاريخ عرب الارض المحتلة ، فقد ادى ذلك الى زعزعات وتغيرات عنيفة في اوساط المجتمع العربي . وستظل الارض اساس التناقض العربي الصهيوني في فلسطين ، لا يمكن ان تحل القضية الحل العادل والدائم الا باعادة كامل التراب الفلسطيني الى اهله واصحابه الشرعيين . وفي سبيل سحق الشخصية العربية ومحو انتمائها القومي وتذويبها ضمن الكيان الصهيوني ، لجأت سلطات الاحتلال الى استكمال حلقات خططها بمحاولة مسخ هذه الشخصية واجتثاث جذورها القومية ، بحيث يسهل عليها فيما بعد ان تفرض عليها التهويد والاهداف الصهيونية دون مقاومة كما كانت تتمنى ، ناسية او متناسية حكمة العجائز في قرى فلسطين التي قدمت الجواب على هذه الامنيات من قبل ان تحبل الصهيونية باسرائيل فقلن « كل شيء عند العطار الا حبني غصب ! » . واتبعت في سبيل ذلك اساليب علمية مبرمجة خططت لها على الايام بكل دقة وخبث، فاخضعت منذ البدء مناهج التعليم ومواد الثقافة العربية لهدف التعليم الحكومي الذي يقوم على اساس قيم الثقافة اليهودية واغراض الصهيونية واهدافها السياسية في فلسطين والوطن العربي ، واصبح هدف التعليم العربي بذلك ، خلق جيل من (العرب الاسرائيليين!) يبتعد عن ثقافته وقيمه العربية ، وينزرع في نفسه روح العدمية القومية بحيث تمحي في النهاية شخصيته وهويته الاصيلة . وفي هذه الظروف التي عاشتها الاقلية العربية في الارض المحتلة منذعام ١٩٤٨ ، لا بد ان نتذكر ان هذه الاقلية تكوّن في غالبيتها مزقا من المجتمع القروي الزراعي في فلسطين ، ولم يتوفر لها المجتمع الادبي ولا المستوى الثقافي القادران على توفير المناخ الذي يفرخ فيه وينمو جيل من الادباء والفنانين ، اذ كانت اجيال المثقفين والشعراء الاحياء من عرب فلسطين قد جرفتهم موجة الخروج الكبير مع من جرفت من غالبية الشعب الساحقة وقذفت بهم في براري المنافي خارج الوطن . « وسرب النسور هذا ، الذي حملته العاصفة ، خلف وراءه فراخا طريّ العود ، بالكاد يستطيع الواحد منها ان يمسك حفنة ريح تحت جناحيه . واكثر فراخ النسر هذه (شهرة) ما كان ليعلق شعره بغير ذاكرته هو ، واما اسمه فلم يره اسود على ابيض في الصحف اكثر من مرات لا يتجاوز عددها عند اصابع اليد الواحدة » (١٤) ، وبذلك اهتز جوهر المجتمع العربي الجديد المحاصر بآلة التسلط الصهيونية الى اعماقه .

هذا هو المناخ العام الذي كان على شجرة الشعر الفلسطيني ان تنمو فيه وان تواصل الابراق والازهار والاثمار ،وفيه نستطيع ان نتصور الى حد ما ، قسوة الظروف وقوة الزوابع التي كان على (فراخ النسور) ان تنشر اجنحتها فيها ، ولو ان هذه الزوابع كانت دائما وابدا من اهم مصادر قوتها . وعلى هذا ، فان مهمة هؤلاء الشعراء لم تكن سهلة ، فكان عليهم ان يواصلوا معركة اسلافهم من الشعراء الثوريين ، مع ان اكبرهم في هذه الايام لم يكن قد اختفى عن شرفة العقد الثاني ، « .. ونحن الشعراء الذين كنا اقل من اصابع اليد الواحدة في حينه ، وكان الشعر لم يتسلق بعد اسفل ذقوننا الى عوارضنا ... واصلنا الطريق ! نفس الطريق الذي لم يبداه بل واصله في حينه ابراهيم طوقان وابو سلمى وعبدالرحيم محمود ومطلق عبدالخالق واخرون .. لقد زودونا ، قبل النكبة ، الزاد الذي استطعنا به ان نسند بطوننا ،بعدها . ان شعرنا الثوري هو امتداد لشعرهم ، لان معركتنا هي امتداد لمعركتهم :

نفس الخندق ـ المحبة للارض والشعب
نفس العدو ـ الاستعمار والضاربين بسيفه
نفس الهدف ـ التحرر الوطني والاجتماعي .
نفس السلاح ـ الكلمة الجريئة التي ترقص في وجه الضوء !ولكن مع اختلاف الظرف التاريخي » (١٥) .

واذا كنا اشرنا الى ما اصاب المجتمع الفلسطيني في المنفى من تمزق وذهول وضياع لشخصيته في اعقاب النكبة ، فاننا ، في نفس الوقت ، يمكننا ان نشير الى ما اصاب المجتمع الفلسطيني في الارض المحتلة او في المعتقل من تمزق وذهول مثله ، ومن ضياع او بالاحرى تجميد لشخصيته مما نرى تسميته (بيات الشخصية) ،فقد اضطرت هذه الشخصية ، ولم تكن تستطيع سوى ذلك ، ان تركن فزعة ومقهورة ، الى صمت عميق وواع ، تدرعت به ، كصدف المحار، ليحميها من بطش العدو ، وويلات عسفه . وكان لا بد في ظروف الاقلية القاسية ، من مرحلة البيات هذه ، وان تمتد فترتها بضع سنوات تجنبا لوطأة الاحتلال الصهيوني الذي يدوس في طريقه كل وعي وحياة . ولذلك فلا عجب ان لم نقع ، حتى الان ، على شعر يصور لنا حياة اول ثلاث او اربع سنوات من عمر النكبة . ولربما في ذلك بعض القصائد ، ولكنها لم تصل الينا ، او لم يقدر لها ان ترى النور. ومما يرجح ان الشعر في هذه الفترة كان معدوما ، او شبه معدوم على الاقل ، ان اكثر شعراء تلك الفترة نشاطا الان ، مقلون بوجه عام ، ويأتي على رأسهم (حنا ابو حنا ، وتوفيق زياد ، وحبيب قهوجي ، وعصام عباسي) . ومهما يكن ، فانه ، في مثل هذه الظروف الشاذة ، ليس كثيرا ان ينتظر الشعر والشعراء مدة اربع او خمس سنوات حتى يستطيعوا اكتشاف بدايات الطريق التي عليهم ان يسيروا فوقها ، خاصة وهم ينكشفون بالتدريج انهم يخسرون ، بالاضافة الى الاهل الذين ابتلعتهم المنافي ، الوطن ، وان كانوا يعيشون فيه وينغرسون في لحمه . وعلى هذا فلربما كان امرا طبيعيا ان يبدأ الشعر الاكثر فاعلية وأثرا في تعبيرات ذاتية وصور رومانسية حالمة ، وفي بدايات رمزية مهما بدت ساذجة او بسيطة، قبل ان يتحول الى شعر صريح في تمرده ومقاومته ، كان يتمثل الشاعر مدينته او قريته فتاة مثلا ، تعبيرا عمليا عن تلك المدينة او القرية ، ومحاولة ، من خلال تلك التعبيرات والصور ، لشد انتباه الناس الى بلدهم والتشبث بترابها والحياة فيها ، كما نرى في قصيدة (قريتي) (١٦) لحبيب قهوجي . ففي جو هدم الصهيونيين القرى العربية ومسحها من الوجود ، وطرد الفلاحين من اراضيهم فيها ، تدق صور الزهر والغاب والطير وشبابه الراعي والقطعان والفجر والحقول في القرية ، على شغاف القلب الانساني وفي حرارة ملوعة. واكثر من ذلك ، فان الشاعر في هذا الجو ، يتجرأ في ثياب الفن،

---

(١٤) توفيق زياد ـ مقالة « ملاحظات اساسية حول الشعر العربي الثوري في اسرائيل »،وقد نشرت في مجلة الجديد ،العددان ٨ ، ٩ السنة ١٣ (حيفا ـ تشرين اول ١٩٦٦) . انظر المقالة في كتابه (عن الادب والادب الشعبي الفلسطيني) وهو مجموعة مقالات طبعت في دار العودة ببيروت ـ ١٩٧٠) .

(١٥) المرجع السابق .

(١٦) قيلت القصيدة سنة ١٩٥٣ . وقرية الشاعر هي (فسوطة) في الجليل بشمال فلسطين . وقد حصلت على القصيدة من الشاعر في شكل صورة بالاوفست لصفحة المجلة التي نشرت فيها القصيدة .

فيلبسها على صور من العزم والآمال والباس والنقمة والاحقاد والغضب، مما نلمس لمس اليد دلالاتها المقصودة في نفس الشاعر ، ووقعهـا وتاثيرها العميق في نفس المتلقي ، فنحس بها في هذا الوقت وكانهـا غناء المدلج يؤنس القافلة ويعينها بها علـى سير الليل ، فالصور الرومانسية التي يسبغها الشاعر اردية فنية على قريته وحياتها ،وما يعبئها به من ملامح القوة لا تنحو بقصيدته منحى الوصف والطبيعـة بمقدار ما تنحو بها منحى فلاحة النفس العربية في الارض المحتلـة وبذر بذور التحدي والتمرد في ترابها . وفي قصيدة « الارض » (١٧) يبرز (حنا ابو حنا) « الملامح الفلاحية » في الشخصية الفلسطينية ويرسمها بطين التراب الفلسطيني العاطر الذي يعتبر رفات الاجـداد سر خصوبته الازلية . ونلتقي في هذه القصيدة بأقدم نص وصل الى ايدينا من شعر الارض المحتلة يتناول صاحبه قضية الارض فـي فلسطين وبعض مآسيها الدامية ، مع ان مأساة الارض بدأت مبكرة في اعقاب النكبة . ونحن ، من جانبنا ، نود ان نعتبر هذه القصيدة أول منبه للملامح الوطنية الخالصة للشخصية الفلسطينية التيلاتزال في مرحلة التحلحل على طريق يقظتها الكاملة ، اذ عندما نقرأ وصف الشاعر الرومانسي للطبيعة الجميلة ولمظاهرها الرائعة في مدينـة (الناصرة) وضواحيها ندرك السر الذي يكمن في ذلك الوصفالمحب الذي يقرب الارض والبلد من نفوس الناس ووجداناتهم ، ويزيدهـم ارتباطا والتحاما بهما ، وكانه يود ان يضفي ذوب هذه الطبيعة شرابا طهورا يمتزج بدماء القلوب . وشبيه بهذا الشعر في خلقه روحالمقاومة في النفس العربية ، ماحاول به (توفيق زياد) تفتيح هذه النفس على الافاق الانسانية لتشهد نماذج من تمرد الشعوب الشرقيةالمستغلة على ظالميها من الحكام والمستعمرين . وتعتبر قصيدتاه «عبدان »(١٨) و« مصر ١٩٥١ » (١٩) نموذجيـن مبكرين عرض فيهما توفيـق اطرافا من نضال شعـوب الشرق ، ومن المهـم ان نشير الى ما فيالقصيدتين من انفتاح مبكر على نضال الشعوب على مستويين : الافق القومي والافـق العالمي . ولربما كان هذا انفتاحا صغيرا في حينه ، ولكنه سيكـون له اهمية كبيرة عندما يتسع في المستقبل ويأخذ مجـراه المؤثر ليطبـع شعر المقاومة في الارض المحتلة بطابع انساني وقومي معا .ونستطيع ان نقدر اثر هذا الشعر وقيمته النضالية على حقيقتهما اذا ما عرفنا أحوال شعوب الشرق في مطلع النصف الثاني من هذا القرنومشاعر الاقلية العربية تجاه تحرر هذه الشعوب من الاستعمار وعملائه ،حكام المنطقة الذين كانوا معه سبب بلائها ومأساتها ، والتخلص منهم ، بـلا ريب ، بشير خير لوضع حد للظلم الذي رفعوا هياكله فوق الارض المقدسة . واذا كنا نعتبر نهاية النصف الاول من الخمسينيات مرحلة تململ مرت بها الشخصية الفلسطينية في الارض المحتلة تلت مرحلـة البيات التي سيطر عليها الذهول في اعقاب النكبة ، وقد قابلتهـا في المنفى بداية مرحلة البحث عن الشخصية ، فان مطلع النصف الثاني من الخمسينيات كان بداية اليقظة الحقيقية التي امتدت حتـى بداية الستينيات خالقة في هذه الفترة مدا ثوريا ذا أثر جماهيـري نام وفاعل ازدادت معه يقظة هذه الشخصية الى حد الوعي العميق على واقعها ، فقد تبلورت معالم الانتماء النضالي مع مطالعالستينيات بتأثير المد القومي والثوري المتصاعد الذي طغى على المنطقة العربية ، وبتأثير الاتصال الاقوى والاوثق بالفكر والادب العربي عن طريقوسائل النشر والاعلام ، ثم بتأثيرالتجربة الطويلة التي قاساها عرب الارض المحتلة ، حتى نحس في هذه الفترة بوضوح مفاهيم الشعر وتبلـور موضوعاته ومهماته في أذهان الشعراء اكثر من اية فترة سابقة .

وهكذا تحمل الشعراء منذ وقت مبكر مسؤولية كبيرة في ايقاظ اهلهم وحفظ تماسكهم وتوازنهم فوق أرضهم ، فراحوا يتلمسون كـل السبل لايقاظ شعبهم وتعميق وعيه على هويته الوطنية بتحسسهملامح النكبة (٢٠) وجراح الشعب في المذابح (٢١) التي فرضها الحكـام الصهيونيون عليه ، و(قروح الارض) (٢٢) ممثلة في عشرات القـرى المنسوفة التي ظلت تدمي قلوب العرب هناك . وقد رأوا فـي ملامح التراث (٢٣) الشعبي الفلسطيني ما يبلور هذه الهوية ويجسدهـا في النفوس ، فدأبوا على ابراز هذا التراث بجمعه ونشره وصياغـة بعض اطرافه بالفصحى لحفظه من الضياع ، كما وجدوا في عنصـر الارض ودعوة الصمود والبقاء عليها ، وفي معركة عودة الاهل المنفيين، ما ينهض بشخصية شعبهم ويعمق وعيها على واقعها ، ويستكمـل ملامح هويتها الوطنية التي ظل حكامهم يحاولون سحقها . ويقفشعر الارض بالذات شاهدا على اصالة روح المقاومة وفحواها في شعـر المقاومة في الارض المحتلة ، وقد مثلت الارض وما تحمله مـن معالـم الطبيعة من خلال تعامل الانسان معها رموزا حية وخالدة في هذا الشعر بشكل عام ... فهي الام وهي الحبيبة وهي المعشوقة وهي المهـرة الجامحة . كذلك كان معركة الصمود والتشبث بالارض التـي تحمـل الشعر مهمتها في مجابهة جميع مخططات العدو من اهم ملامح هـذه الهوية الوطنية ، وبها جسد الشعراء الاضطهاد القومي الذي تعـرض له شعبهم حتى لقد استحالت ارضهم الى غابة من الصلبان رمـزا على آلام اهلهم وعذابهم ، واستخدموا رموزا متعـددة في معاركهم هـذه سخروها في اغراض النضال ، فجمعوا بذلك بين الفن والثوريـة، واغتنى كل منهما من الاخر . والى جانب ذلك ، فقد خاضوا ، فينبل وشجاعة ، معركة انتمائهم القومي ضد محاولات الصهيونية محو هـذا الانتماء ، من خلال مشاركتهم الصادقة في كل احداث الامة ، وقـد وسم شعرهم حساسية شديدة ووعي رشيد بالتاريخ وايمان بجبروته، فكانوا ، اذ يفيئون اليه يجدون فيه دوافع اعتزاز وفخر يستنجدون بها لتحفظ عليهم تماسكهم امام هوة العدمية القومية التي حفرتهـا لهم سلطات الحكم العنصري الصهيوني ، وكان (سميح القاسم)شاعر القومية كما كان (محمود درويش) شاعر الارض وزيادة على ذلـك فقد ابرزوا في شعرهم الوجه الانساني لنضال شعبهم من خلال فهمهم الواعي للصلة العضوية بين معارك الشعوب ووحدتها والتضامن فيمـا

---

(١٧) نداء الجراح (منشورات مكتبة عمان ـ الطبعـة الاولـى. ١٩٦٩) : ٤١

(١٨) +(١٩) اشد على ايديكم (مطبعـة الاتحاد ـ حيفا .دون تاريخ والمرجح أنه ١٩٦٦) : ١٣٩ ، ١٤٤ ، ديوان اعمال الشاعر(طبعة دار العودة ـ بيروت) : ١٥٩ ، ١٧٤

(٢٠) انظر قصيدة (مقاطع) لسالم جبران في (ديوان الوطنالمحتل) جمع يوسف الخطيب : ٥٤٤ وفي كتاب « ادب المقاومة في فلسطيـن المحتلة » لغسان كنفاني : ١٣١ .

(٢١) قيلت مجموعة من القصائد في هذه المذابح العديدة، انظـر منها قصيدة « كفر قاسم » لتوفيق زياد مجموعة « ادفنوا اموتاكم وانهضوا » : ٢٧ : وقصيدة ، (نداء الجراح) لحنا أبي حنا ـديوانه: ٧٧ وقصيدة (ازهار الدم) لمحمود درويش ـ ديوان (آخر الليـل).. وقصيدة « الغلة الحمراء » لراشـد حسيـن ـ ديوانه (صواريخ) ـ مطبعة الحكيم ـ الناصرة ١٩٥٨ ـ : ٢٣ .

(٢٢) انظر قصيدة « كرمئيل » لسميـح القاسم ـ ديوان (اغاني الدروب) : ٦١ وقصيدة « الحزن والغضب » لمحمود درويش ـ ديوان (اوراق الزيتون) : ١٠٦ .

(٢٣) اقرأ بعض اعمال توفيق زياد في هذا الميدان ، ومنها قصيدة (سرحان والماسورة) . انظرها في ديوان اعماله الكاملة : ٣٤٤

بينها ، فنقلوا قضية شعبهم الى ديوان الشعر الانساني مما اكسب شعرهم ، بعدم تقوقعه على ذاته ، وبعدم انعزاله عن ظروفه وعالمه، ومن خلال الديالكتيكية الفعالة التي اتسم بها ، روحا وصفاء انسانيين، كانا من انقى خصائصه واحلى شمائله ، فاثرى بذلك التراث الانساني من خلال مقاومته النبيلة ، وكبحه جماح الحقد الانساني الاسود ، فلم تظهر فيه اية نزعة شوفينية يبدو فيها بغض الانسان ، او حتى بغض اليهودي كيهودي ، على الرغم من كنوز الحقد والبغضاء التي دفن الصهيونيون فيها نماذج مشوهة للشخصية العربية عبر تراثهم الادبي والفني .

وعلى الاجمال ، فان اجتماع هذه الابعاد كلها في شعر المقاومة في الارض المحتلة لدليل على عمق الالتزام الواعي الذي ظل هؤلاء الشعراء يحسونه تجاه قضيتهم وقد تسلطت عليهم هموم مسؤولياتها بابعادها المختلفة ، فظلت في اطار هذه الابعاد بمثابة المحور او قطب الرحى الذي تلتقي كلها عليه وتعمل في خدمته ، يقينا بان العدو ،كما يراه الضمير الشعبي ، شيء عابر وعرض سيزول حتما . وبهذا اليقين ارتفع هذا الشعر عن مستوى النواح والتفجع واليأس وظل بشيرا بالنصر ، يرد على مزاعم الاداب الصهيونية ودعاواهاحول (الشخصية العربية) ، ويقدم نموذج المناضل العربي ، والاديب العربي الراسخ في مبدأ الالتزام ، والجسور في المقاومة والنضال . ففي واقعهم القاسي ، حيث عاش هؤلاء الشعراء في قلب النار بلحومهم واذهانهم ، جنبا الى جنب مع شعبهم ، تمكنوا ، بسبب تماثل ابعاد حياتهم ، ووضوح اهدافهم وتحددها ، ان يستغلوا هذا الواقع في اغناء تجربتهم وتجسيد معاناتهم الفنية ، فجاء شعرهم شعر نضال جسد ابعاد البطولة الحقيقية ، وازدهر من خلال كي التجربة،وبجمعهم بين صبوتي الشعر والنضال بالرفض والاصرار والامل ، فقد جمعوا بين القول والفعل في معركة مباشرة مع عدوهم الحقيقي ، مما فرض عليهم ان ينبذوا جانبا الندب والصراخ ، ويلجأوا ، في هذه المعركة الحقيقية ، الى وعي العقل والعاطفة معا ، الامر الذي اشعل فيشعرهم نبرة الصدق ، واعلى صوت الضمير ، وانضج في نفوسهم ما حذقوه من مادة التراث التي وصلت الى ايديهم ، وعملوا على صقلها وتطعيمها بما اطلعوا عليه من تراث شعر الاحتجاج والمقاومة العالمية ، دون ان ينسوا ابراز ملامح الشخصية الفلسطينية في شعرهم . يقول محمود درويش ((وانا اعتبر نفسي امتدادا نحيلا بملامح فلسطينية لتراث شعراء الاحتجاج والمقاومة ابتداء من الصعاليك حتى حكمت ولوركا وأراغون الذين هضمت تجاربهم في الشعر والحياة وامدوني بوقود معنوي ضخم)). (٢٤) ويختلف شاعر الارض المحتلة في واقعه هذا عن رفيقه الذي حيل ، في المنفى ، بينه وبين عدوه الحقيقي بجدران الانظمة العربية الصلدة ، عازلا له عن ميدان الفعل ، فتبدد الكثير من طاقاته ، حبيسا ، في معارك جانبية فرضت على معظم اعماله الندب والصراخ .

ومما يلفت النظر في شعر الارض المحتلة المقاوم تلك الروحالواعدة بالامل والتفاؤل ، حتى كان مزاج اصحابه ظل فرحا مستبشرا دائما، يغمره ، على عادة الثوريين ، احساس بالتفاؤل الثوري ، اعانهم على صمودهم ، وبعث في نفوسهم الاحتقار والاستهانة بالظلم الطارىء المنصب عليهم في شتى اشكال الاضطهاد وصور القهر والعذاب . ولم يكن هذا التفاؤل بلا سند أو دون مقومات ، فقد قام على اساس من الشعور الواعي وغير الواعي بالانتماء القومي العروبي ، وعلى المعرفة البسيطة الصادقة بحقيقة القضية وعدالتها ، وعلى الحس التاريخي الواعي والمؤمن بحتمية العدل التاريخي في النهاية . وقوى هذه الاسس واكدها في نفوسهم معرفتهم الواسعة بالاخبار والقصصالدينية التي استغلوها استغلالا حسنا في شعرهم ، وضربوا بها الامثال على صدق تفاؤلهم ، ووجوب مقاومتهم . وكذلك ، فقد امدت بعضهم الايديولوجية اليسارية بزاد من الثقافة وبشمولية في النظرةالمستقبلية ما وضع في ايديهم نظرية مرشدة قامت على اساس الايمان بالمنهج الاشتراكي العلمي ،فانارت لهم الطريق بمستوى ما يبصرون ، وانقذت عملهم من العمى ، وجنبت شعرهم ، بمحتواها الاجتماعي ،أن يكون مجرد رد فعل مباشر وغير واع لاوضاعهم ، فاخصبته بالتفاؤل الثوري الذي تجاوز به مجرد رصد الاحداث ، وبلغ مستوى الزيادة التقدمية ذات التاثير والفاعلية ، الامر الذي ملأ حياتهم بيقين النصر فيالنهاية. وبهذا اليقين تسلطت على عقولهم فكرة البعث من خلال الموت منأجل المستقبل والغد الاجمل . فهم يرون في موتهم حياة شعبهم ، وفيمحنة شعبهم وعذابه خلاص الامة واحياء فلسطين باعادة بنائها مطهرة من جديد ، بروحها العربية الاصيلة ، وبحضارتها الانسانية العريقة. ولئن لم تبرز الدعوة الى تقويض كيان الدولة الصهيونية سافرة في شعر هؤلاء الشعراء المقاومين ، بحكم الظروف التي يعيشونها ،فاننا نستطيع ان نتلمس هذه الدعوة ذاتها متضمنة في روح شعرهم فيشكل رفضهم مضمون الدولة واسسها القائمة على العنصرية والطائفية والقهر والاغتصاب والاستيطان . والشاعر عندما يناضل ضد هذه المقومات التي تكون في مجموعها الدولة الصهيونية ، فهو يحارب، بحق ، حقيقتها واصل وجودها ، ليجردها من مقوماتها الاساسية التي اصطنعت عليها ، ولا يمكن ان تستمر دونها ، ولا معنى لاستمرارها بفقد هذه المقومات . اما ما يمكن ان يحدث بعد ذلك ، فليس من شان الشاعر ان يقوم بحصر جزئياته وتفصيلاته ، لان ذلك من شان السياسيين ، ويكفي الشاعر ان يشجع الامل ويحث على المقاومة من خلال الالتزام الواعي بقيمة الكلمة في المعركة ، وبادراك مسؤوليتها دون أي استخفاف او استهانة تشوب قدسية دورها ، أو تهز اثر فعلها .

وشعر المقاومة في مجموعه يرفد نهر الشعر العربي الفلسطيني السابق عليه والمعاصر له ، ويصب معه في بحر الشعر العربيالواسع، حيث اثراه ، منذ العشرينيات ، بكثير من العطاء والخير ،في الوقت الذي تاثر تاثرا واضحا بتياراته القديمة والحديثة ، فهو يعيش متساوقا معه في توجهه وفي سماته الفنية . فقد ظل ، مثله مثل الشعر العربي كله ، يحافظ على روح التقليد والكلاسية مع ما توفر له من سمات التجديد الهينة حتى الخمسينيات ، حيث بدا تيار الشعر القائم على وحدة التفعيلة ، فارتبط به بشكل عام ، وان لم نعدم الشعر الكلاسي ، ثم ارتقى معه بعد ذلك الى الاتكاء على كثير من عناصر التجديد التي سخرها البعض في خدمة شعر المقاومة ، لزيادة اثره في النفس وتعميق فعله فيها واطالة مداه . واذا كان الشعر الفلسطيني يحمل ملامح الذات الفلسطينية وهويتها الخاصة في نكبتها وفجيعتها اكثر من سواه ، فلان اصحابه هم الذين انغمروا في بحر قضيتهم ، فخرجوا وعلى وجوههم وفي قلوبهم ملحها المرير .

ولم يكن مفهوم المقاومة في شعر العامية الفلسطينية اقل بروزا وتحددا منه في شعر الفصحى ، فقد شابه شعر العامية ، وهو فلذة من الوجدانالشعبي الاصيل ، شعر الفصحى في مقاومة التحدي

---

(٢٤) مجلة الطريق ، العددان ١٠ ، ١١ (تشرين ٢٢ كانون ١ ـ ١٩٦٨ ، بيروت) : ١٩ انظر ايضا كتاب ((شيء عنالوطن)) طبعة دار العودة ـ بيروت) : ٢٧٣

الذي فرض على الوطن ، ومنذ وقت مبكر من هذا التحدي ، فتوفر كثير من الانسجام والتساوق بين الموضوعات التي عالجها كلا الفنين ، اذ هب ابناء الوطن معا يبلورون عناصر مقاومتهم ضد الاخطار التي تعرض لها وطنهم ، فمر الجميع في المواقف نفسها ، وخضعوا لمؤثرات واحدة ، فلم يكن غريبا ان يتناولوا في شعرهم موضوعات واحدة تقريبا .وقد تناول شعر العامية بعض الموضوعات التي لم يتناولها الشعر الفصيح ، فعبر عن ضمير الشعب في تعظيم ابطاله وشهدائه ، وفي وصف معارك الثورة بروح ملحمية مؤثرة ، وتحدث عن البندقية ومدلولاتها باهتمام خاص ، كي يخلق من ذلك كله روح القوة والثورة في نفوس الجماهير. ولقد يظل تحدي السلطات اكثر يسرا على الشعر الشعبي ، لانه لا يخضع لرقابتها وهو يتناقل ويحيا بين الجماهير بالمشافهة وليس بالتدوين . والى جانب ما عكسه من روح القوة والثورة ، فقد عكس شعر العامية شعور الحزن الشعبي الذي ربما كان اكثر عمقا مما هو في شعر الفصحى ، لان جماهير الشعب العادية التي يمثلها الشاعر الشعبي تمثيلا اكثر صدقا ، هي التي عانت مما لحق بالوطن من ويلات ، وتحملت من متطلباتها المادية والمعنوية ، اكثر من الطبقات الاخرى . ولم يقتصر هذا الاتفاق بين شعر العامية وشعر الفصحى على مرحلة دون اخرى من المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية ،فقد اتسقت موضوعاتهما ومواقفهما الملتزمة الواعية في عهد الوجود الانكليزي، وفي المنفى ، وفي ظل الاغتصاب الصهيوني ، فظلا يعملان معا على سلامة الشخصية الفلسطينية وتعميق وعيها على واقعها ، لتحيا بروح العروبة والعمل على حماية الوطن ، وعلى امل التحرير والعودة ،ومن خلال روح الالتزام والمسؤولية لم ينس شعر العامية كذلك ان يحفظ على هذه الشخصية انتماءها القومي ، وان يحملها رسالتها في حفظ عروبة الوطن ، حتى لنحس ، من هذه النواحي ، بالتكامل العضوي بين نوعي الشعر المقاوم كليهما ، فبدا هذا الشعر ، في مجموعة ، كانه بحر شاسع ممتد ، يقودك متن امواجه ، من اي الشواطيء ركبتها، الى مرفا واحد ... مرفا التحرير والعودة والوحدة .

وهكذا ، فان شعر المقاومة الفلسطينية ، بكل ابعاده وخصائصه، وبتجسيده الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني ، وبحفظه عروبة هذه الشخصية ، وابرازه انسانيتها ، لا يسعى فقط الى هدم واقع سلبي غريب فرض على الوطن والمنطقة العربية ، وانما هو يقصد اعمار الحياة الانسانية التي هدمتها العنصرية الصهيونية والامبريالية العالمية في الديار المقدسة ، واعادة بناء امجاد الانسان بتغيير الامر الواقع ومحو مفاسده . وهو ، بروحه الوطنية والقومية والانسانية ، وباتجاهاته التقدمية التي اتسم بها ،وبرسالته النضالية التي حملها ، يعتبر في كثير من جوانبه ، عمرانا فنيا ، وصرحا حضاريا يثري تراث العرب والانسانية بخير ليس بالقليل ، ولعله ان يكون قد شارك ، الى جانب تراثنا الحضاري ، في حفظ توازن الامة وتماسكها بعد عدوان يونيو ١٩٦٧ ، فقد كان هذا الشعر في كثير من آثاره الهادي والانيس للجماهير العربية التي كادت تسقط في هوة الياس ووهدة الانهيار ، لولا بقية من تراثها العريق ايقظتها على هدهدة هذا الرفيق الهادي ، فاحتضنته كما يحتضن الغريق عجلة انقاذ ، واستبشرت به كما يستبشر الساري باول الضياء .

الجزائر — حسني محمود حسين

ماركيوز أو فلسفة الطريق المسدود

تاليف محمود أمين العالم

يعتقد المؤلف ، وهو واحد من كبار المثقفين التقدميين العرب ، أن الفكر العربي المعاصر فكر مأزوم لانه يفتقد النظرية العلمية الواضحة والخبرة العملية المتنامية . و « في سعينا المأزوم الى الوضوح الفكري، الى التحرر الوطني والاجتماعي ، الى الوحدة القومية ،كانت تطل علينا بين الآن والآخر صيحات تزعم في نبراتها العالية نبوة الخلاص . على انها لم تكن تفعل شيئا غير أن تضاعف من محنتنا ومن ازمتنا ... برجسون .. سارتر والوجودية ... الوضعية المنطقية والبرجماتية ... واخيرا تطل علينا الماركيوزية لتقدم نبوءة جديدة للحرية (...) ولكنها في الحقيقة تسعى لتطمس الوعي الصحيح بحقائق حياتنا ووقائع عصرنا ، وتدفع بفكرنا ونضالنا الى ما أزعم انه طريق مسدود . »

وهكذا يكون هذا الكتاب ادانة كاملة لفكر ماركوز، وهذه الادانة قائمة على دراسة لآثار ماركوز ومواقفه. وكما سبق لدار الآداب ان قدمت بعض آثار ماركوز للقاريء العربي ، من غير ان يعني ذلك بالضرورة تبنيها لهذا الفكر ، فانها تقدم اليوم نقدا لهذا الفكر بقلم مفكر عربي ماركسي ، من غير ان يعني ذلك بالضرورة ايضا أنها تقر وجهة نظره ، هذه الوجهة التي هي قابلة حتما للنقاش .

صدر حديثا